الحتمية العلمية ومشكلة الإرادة الحرة

أسامة العبيدي بكار

مقالات
فلسفيــة

6 أغسطس 2023

جميع الحقوق محفوظة 2023

بسم الله الرحمن الرحيم

الحتمية العلمية ومشكلة الإرادة الحرة

أسامة العبيدي بكار

ملخص:

-إذا أردنا أن نتحدث عن مشكل «الحتمية العلمية» فإننا لن نكُفَّ عن الحديث، خاصةً عندما نقرأ ونحلل -ونناقش- الإنجازات العلمية لعلماء القرن السابع عشر، هذا القرن الذي مهَّد للحديث عن قوة التوقع والنظام في العلم، هذه القوة التي حاول علماء الفيزياء الكوانطية نسفها وإبعادها عن علم الفيزياء، لذلك ومن أجل فهم هذه المسألة لا بد من فهم أعماقها التي نجد بداخلها الحتمية العلمية تصارع لتتغلب عن «الإرادة الحرة» التي بدورها تحارب لتصمد داخل بناءٍ علمي ميكانيكي، لا يترك المجال للحديث عن حرية الأفعال، التي قد تتسبب في عودة العالم إلى عصر اللانظام، وبما أننا تكفلنا بتفسير أهم اشكاليات هذه المسألة؛ وجب علينا الانطلاق من أهم نقطة، والتي أسهم لابلاس في وضعها، مباشرةً بعد تفكير علماء القرن السابع عشر في كيفية الدفاع عن نظامٍ ميكانيكي لا تحكمه الصدفة.

-بمجرد تصفحنا لأهم أفكار تاريخ الفلسفة الحديثة، يتبين لنا أن مسألة الحتمية العلمية التي مهد لها لابلاس من خلال أفكاره الميكانيكية ورؤيته الاحتمالية تواجه مشاكل عديدة، تتعلق بكيفية نظر المفكرين لمسألة الإرادة الحرة وعلاقتها بالإنجازات العلمية التي تميزت بها الثورة العلمية، ثم علاقتها بمبادئ مثل السببية والإستمرارية اللذين يمهدان للحديث عن الحتمية، ومن هنا لا بد أن نتساءل: هل ينبغي على المرء التفكير في حريته من داخل الحتمية العلمية؟ أم أننا لا بد أن نتعامل مع أفعال الكائن البشري بكونها أفعالًا عفوية تحكمها الصدفة؟ وإذا أردنا أن نختزل هذا الطريق الشاقَّ، ونخفِّفَ عن أنفسنا مشقة طرح هذه الأسئلة نقول: كيف يمكن للإنسان أن يفهم علاقته مع الله ومع العالم انطلاقًا من إيمانه الكبير بالنظام الميكانيكي؟

يتحدث لابلاس عن الإرادة الحرة في كتابه «مقالة فلسفية حول الاحتمالات» بوصفها تنتج من وهم العقل، لتوهم نفسها بأنها صُممت من دون دوافع أو أسباب، وفي العموم دافع العلماء عن فكرة الحرية كوهم Illusion؛ من أجل تحصين ذلك البناء العلمي، الذي كلف علماء الثورة العلمية أكثر من قرنين من البحث والتفتيش عن الصورة النهائية للكون، هذه الصورة التي رسمها الرياضي من خلال دقة الرياضيات، حيث إن مَن يتعلم المعادلات ونظرية الاحتمالات -حسب لابلاس- كأنه تعلم «الابتعاد عن الأوهام، التي غالبًا ما تقودنا إلى الضلال»[1]، فمن خلال ترييض الطبيعة وظواهرها، استبعد العلماء احتمالية وجود صدفةٍ تتحكم في قوانين هذا الكون بدرجةٍ أولى، وتتحكم في سلوك الفرد بدرجةٍ ثانية، وقد قادت الأفكار الفلسفية لسبينوزا العديد من الفلاسفة إلى التأكيد على ضرورة التعامل مع الإرادة الحرة بوصفها وهمًا، أي أننا نلاحظ أن القاسم المشترك بين أغلب العلماء والفلاسفة في تلك الفترة، كان قاسمًا يجمع الحرية مع الوهم، طالما أن التأكيد على وجود الإرادة الحرة، هو تأكيد على تبني نظرية مركزية الإنسان التي تنكر قوانين الواقع[2].

بهذا المعنى تقودنا حتمية لابلاس إلى ضرورة تعريف الإنسان بأنه غير حر، طالما أن أفعاله ترتبط سلفًا بأسباب خارجية، وفي هذا تناقض كبير مع الفلسفة الحديثة التي مهدت لحداثتها من خلال العقل والحرية، وكل المفاهيم التنويرية، طالما أن وهم الإرادة الحرة لا يمكن للإنسان أن يهرب منه، حيث يبدو أن الرغبة نفسها مصممة وفقًا لقوانين الطبيعة[3]، وفي هذا السياق حاول وليام جيمس تقسيم آراء المفكرين حول الحتمية إلى مجموعتين، أولًا: مجموعة ترفض فكرة الحتمية العلمية، وثانيًا: مجموعة تجعل من الحتمية تتوافق مع وجود الإرادة الحرة، حيث إنه لا بد أن يمتلك الإنسان في أفعاله عفوية ليست مطلقة، وهذه المجموعة

(1) M. Le Marquis De Laplace, Essai philosophique sur les probabilités, p274.

(2) Jean-Mare Goglin, Déterminisme, contrainte et liberté, contribuation à une théorie thomiste de la liberté de choix, 2013, halshs-00841531,p2.

(3) Ibid, p2.

الثانية أرادت تغيير مفهوم الصدفة بالعفوية غير المطلقة، وقد دافع كل من توماس هوبس، جون لوك، وديفيد هيوم على النظرية التوافقية بين الحتمية والإرادة الحرة، مؤكدين بأن الاعتراف بهذه النظرية لا يعني إثبات وجود هذه الإرادة، وهنا نلاحظ مدى صعوبة الموقف الذي تجادل حوله فلاسفة القرنين السابع عشروالثامن عشر، فالإيمان بالأفكار الميكانيكية هو بمثابة التخلي على أهم المبادئ الفلسفية، والإيمان بالحرية هو نسفٌ مباشر لبناء الثورة العلمية.

في ظل هذا الصراع الحامي بإمكاننا أن نجد تفسيرًا مهمًّا لهذه المسألة، عندما ندقق في كتابات لايبنتز، هذه الكتابات التي أكدت أن حكمة الله هي التي تسهم في انتظام العديد من الأحداث الكونية والأفعال الإنسانية، وفي هذا السياق يقول لايبنتز: «ليس لي كذلك أن أوافق على رأي بعض المحدثين الذين يؤكدون بجسارة أن ما يفعله الله ليس أكمل ما يكون، وأنه كان بإمكانه أفضل بكثير مما فعل»[1]، وهنا يحاول هذا الفيلسوف أن يطبق أفكاره الفلسفية والمنطقية التي ساعدت لابلاس في تأسيس الحتمية العلمية على مسألة الحرية الإنسانية، إلا أن هذا التطبيق سرعان ما كانت نتيجته تناقض أهم الأفكار التي دافع عنها لايبنتز نفسه، الذي يؤكد بأننا نفكر مباشرة بأفكارنا الخاصة وليس بأفكار الله[2]، وفي هذا القول دفاع عن الحرية.

بعد حتمية لابلاس لم يعد الفيلسوف يفكر في صراع العقلانية والتجريبية، بل أصبح يفكر في صراع القدرية والجبرية[3]، فوهم الحرية والإرادة الزائفة، هي مفاهيم

(1) غوتفريد فيلهلم لايبنتز، مقالة في الميتافيزيقا، ص92.

(2) المرجع نفسه، ص 185.

(3) إذا أراد المفكر أن يقف على أهم الأفكار الأساسية المتعلقة بحرية الإنسان من عدمها، وجب عليه العودة للتعمق في أهم صراعات الفرق الكلامية في الفلسفة الإسلامية وخاصةً بين القدرية: التي تَعتَبِر الإنسان هو خالق أفعاله ومتحكم فيها، وبين الجبرية التي تعتبر الإنسان مجبر في أفعاله ومجبر في اختياراته، فرغم أن أفكار هذين الفرقتين تتأسس على أسسٍ دينية لا علمية، إلا أنه بإمكاننا أن نلاحظ تأزم العلاقة التي جمعت بين الإرادة الحرة والحتمية الفلسفية في تلك الفترة.

ابتكرها المفكرون الذين يؤمنون بالنظام الميكانيكي للكون، فعملية الهضم، الألم، الفرح، الحزن، دقات القلب، والعديد من التصرفات الميكانيكية الأخرى، تجعل من الإنسان غير حر تمامًا، وهنا تضاربت المواقف الفلسفية واختلفت الإجابات حول العديد من الأسئلة، أسئلة من قبيل: هل من الممكن أن يتحكم الإنسان في تصرفاته الميكانيكية؟ كيف للمرء أن يسيطر على الطبيعة وهو لا يمتلك إرادةً حرة؟ وإذا كان فعل الإنسان عفويًّا دون أسباب -أي إنه فعل خارج عن السيطرة- هل من الممكن أن نتحدث عن الكائن الأخلاقي؟

هذه هي الأسئلة التي طرحت على علماء القرن السابع عشر، هذه هي الأسئلة التي شغلت بال فيلسوف العلم منذ تلك الفترة، فهانز ريشنباخ يؤكد بأنه لو أردنا أن نعطي قيمة فلسفية للإنسان، لا بد من أن نسهم في تحطيم بناء لابلاس في علم الفيزياء، هذا البناء الذي تأسس حول الحتمية العلمية، التي تجعل من الإنسان حسب ريشنباخ مقيدًا بقوانين علمية، هذه القوانين تجعلنا لا نتحدث عن معنى الحرية في الحياة البشرية، فلكي نسترجع المعنى الحقيقي للاختيار، يصبح من الضروري أن نتطلع إلى لا حتمية الفيزياء الحديثة[1]، هكذا يلخص كارناب موقف ريشنباخ، ويؤكد بأن عملية اختيار الإنسان لأفعاله، ترتبط أساسًا بعدة عوامل منها: الاجتماعية والنفسية والأخلاقية، فهل من الأخلاقي أن يُسجَن طفل في السادسة من عمره لأنه ارتكب خطأً يعاقب عليه القانون؟ وفي هذا السياق يقول كارناب: «إن الإرادة الحرة هي القرار الذي يتخذه شخص ما، قادر على التنبؤ بنتائج مسارات أفعاله المختلفة، يختار منها ما يُفضله، وفي رأيي ليس ثمة تعارض بين حرية الاختيار بهذا المعنى وبين الحتمية، حتى وإن كانت على النمط الكلاسيكي القوي»[2] وهنا نلاحظ أن الإنسان واعٍ بأفعاله وحر في اختياره، قادر على التنبؤ بنتائج تلك الأفعال، وهذا ما يجعله يدعم فكرة الحتمية العلمية.

إن تعدد مشكلات الحتمية العلمية في الحقل الفلسفي، جعل المفكرين يحاولون التفكير في العديد من المسائل الفلسفية، من خلال الابتعاد عن حتمية لابلاس التي

(1) رودلف كارناب، الأسس الفلسفية للفيزياء، ص243.

(2) المرجع نفسه، ص252.

يبدو أنها غير مرحب بها في بيت الحكمة، وهنا أصبحت الحتمية حتميات: حتمية بيولوجية في البيولوجيا، حتمية ثقافية في علم الاجتماع، وحتمية عصبية في علم النفس، وهنا بإمكاننا أن نجمع بعض الأفكار الجادة حول مفهوم المصادفة في حياة الطفل في فكر جون بياجي Jean Piaget (1896-1980) الذي أكد في كتابه introduction à l'épistémologie génétique بأن مراحل تطور أو نمو الأطفال قد ترتبط ببعض التصرفات العشوائية، وكذلك أكد سيغموند فرويد Sigmund Freud (1856-1939) في كتابه «علم النفس المرضي للحياة اليومية» La psychopathologie de la vie quotidienne بأن العديد من الأفعال اللاواعية في سلوك الإنسان، كالهفوات والنسيان، تدل على العديد من الاضطرابات الداخلية في الجهاز النفسي، وقد أصبحت هذه الفكرة مصدر تأويلات عديدة، حيث هناك من يرى بأن الاضطرابات الداخلية للإنسان لا تساعده على الاختيار وبالتالي لا يمكن للإنسان أن يتمتع بإرادةٍ حرة، وهناك من يرى بأن تلك الاضطرابات ما هي إلا تعبير عن عدم اتباع الإنسان لخطواتٍ ميكانيكية تُقيد سلوكه.

إن ربط المفكرين حرية الإرادة بأسباب داخلية قد تؤدي إلى سلسلة من الأحداث الميكانيكية، فالعوائق تؤثر في الرغبة لتشحن الحرية[1]، وبذلك يتمتع الإنسان بالإرادة الحرة، هذه الإرادة التي قد تكون متوارثة في طبيعة الإنسان، وفي هذا السياق أكد ريتشارد دوكينز في كتابه «الجين الأناني» The Selfish Gene على وجود ما يعرف بالحتمية الجينية، التي تجعل من البشر مبرمجين في أفعالهم نتيجة التقيد بجيناتهم، وهنا تكون الرغبة في الحرية هي أيضًا رغبة متوارثة بين البشر، لهذا رفض جون لوك حرية الإرادة لأنه أنكر بالأساس وجود الرغبة، وعلى المنوال نفسه، رأى الفيلسوف الأمريكي بيتر فان انواغن Peter Van Inwagen في مقالٍ له بعنوان «الإرادة الحرة لا تزال لغزًا»[2] Free will remains a Mystery بأن هناك العديد من القوانين الاحتمالية التي تتحكم في اختيارات الإنسان، لتجعله غير قادرٍ على التحكم في أفعاله، وإذا ما

(1) Cyille Michon, La causalité formelle du raisonnement pratique, Philosophie, n°76, décembre 2002, p63.

(2) Peter Van Inwagen, Free will remains a Mystery, Philosophical perspectives, 14, 2000, p 1-19.

أردنا استيعاب أفكار هذا الفيلسوف في هذه الدراسة التحليلية فإننا سنؤكد بأن الإرادة الحرة غير قادرة إلا على تنفيذ ما هو محتمل في عالم الاحتمالات، وربما بهذا نمهد للحديث عن علاقة الترابط بين مسألة الإرادة الحرة والحتمية العلمية، طالما أن تلك الإرادة تعمل في الطبيعة لتشارك في تطورها[1].

(1) Jean-Mare Goglin, Déterminisme, Contrainte et liberté, contribution à une théorie thomiste de la liberté de choix, p15.

البيبليوغرافيا

العربية:

- غوتفريد فيلهلم لايبنتز، مقالة في الميتافيزيقا، ترجمة وتقديم وتعليق: د، الطاهر بن قيزة، مراجعة: د، جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط1، 2006.

الأجنبية:

- M. Le Marquis De Laplace: Essai philosophique sur les probabilités, paris, BACHELIER, imprimeur-libraire, N°55, sixième édition.

- Jean-Mare Goglin, Déterminisme, contrainte et liberté, contribuation à une théorie thomiste de la liberté de choix,2013. https://hal.science/halshs-00841531

- Cyille Michon, La causalité formelle du raisonnement pratique, Philosophie, n°76, décembre 2002